

تطور الطفولة

عرض: بينجامين شوارز

مجلة أتلانتيك

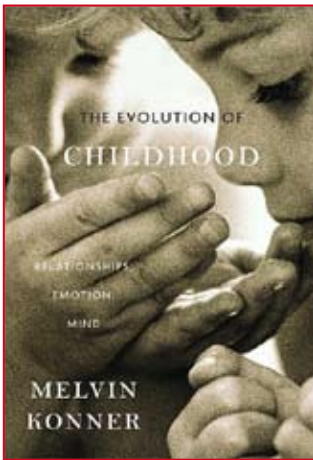
عدد مايو 2010

The Evolution of Childhood

Reviewed By Benjamin Schwarz

The Atlantic Magazine

• المحرر الأدبي في مجلة أتلانتيك. بينجامين شوارز



غلاف الكتاب

الكتاب: تطور الطفولة.. العلاقات، العاطفة، العقل.

الكاتب: ميلفين كونر.

عدد الصفحات: 960.

الناشر: جامعة هارفارد.

تاريخ النشر: مايو 2010.

نبذة عن الكاتب:

• أستاذ الأنثروبولوجيا وأستاذ مساعد لعلم النفس وعلم الأعصاب في جامعة إيموري.



ميلفين كونر

• دكتوراه في الأنثروبولوجيا البيولوجية، جامعة هارفارد (1973).

• قام ببحوث ميدانية على قبائل بدائية أفريقية لدراسة ظواهر الطفولة والعقم الإرضاعي عندها.

• رجع إلى مقاعد الدراسة مرة أخرى ليتخرج طبيباً من جامعة هارفارد (1985).

• عضو مركز الدراسات العليا للعلوم السلوكية، ومؤسسات بحثية أخرى.

تطور الطفولة

بين يدينا كتاب مذهل نافذ صفحاته على التسعمئة. واستغرق إعداده ثلاثين عاما. ومن يتصفح يعرف فورا أنه عظيم ومعقد ويخلب الألباب بإحاطته للموضوع من كافة جوانبه وطابعه الخاص. يستعرض هذا الكتاب بإسهاب شديد التطور البيولوجي للسلوك البشري وبالأخص سلوك الأطفال. ويقدم المؤلف ميلفين كونر (Melvin Konner). وهو عالم مختص بالأنثروبولوجيا وعلم الأعصاب من جامعة إيموري (Emory). شبكة تثير الاهتمام من النظريات والدراسات التي تمتد عبر عدد من العلوم: من علوم الجينات التجريبية إلى علم الأعراق؛ ويرجع إلى البداية من أقدم الثدييات التي تضع البيوض ليصل إلى مناقشة قضايا حديثة جدا كقضايا تعارض الهوية الجنسية. ويرجع إلى أبحاث علمية حول كافة فصائل الحيوانات التي يشترك معها الإنسان بصفات واضحة (كأن يستعين في شرحه لعملية تعليم الأطفال بالتشابه مع فصيلة القطط بأنواعها الكبيرة والصغيرة. حيث نشترك معها بهذا المجال بقدر أكبر من أقراننا في الجينات: الرئيسيات الكبيرة). إن عملية تجميع أجزاء هذه الأحجية الصعبة يعد لوحده مآثرة بطولية. ورغم الرهبة التي يثيرها ما يحتويه الكتاب من كم هائل من المعلومات واستخدام مصطلحات تخصصية صعبة. فإن المؤلف استخدم أسلوبا حواريا في المواطن المستعصية على الفهم. وراعى أن تكون اللغة لطيفة. ومن يقرأ هذا الكتاب يحس أنه برفقة معلم حريص على المساعدة ومفعم بالأمل يود تشارك معلوماته مع القارئ.

يقسم المؤلف كتابه إلى أربعة أجزاء متداخلة من «مستويات الملاحظة»: الجينوم، الجهاز العصبي، المجتمع، الثقافة؛ حيث يطرح كونر فهمه لتطور الدماغ بدءا من الفقاريات وحتى الإنسان. مستعرضا ما في هذا المجال من أدمغة ذات نمو بطيء وحجم كبير وطاقة هائلة. حيث تطورت اعتمادا على نظام غذائي يحتوي على الفواكه. ثم الأطعمة المطبوخة النباتية والحيوانية. وبالأخص الحيوانات المائية. ناهيك عن رعاية الأم وغيرها من العوامل المساعدة على ضمان تغذية الطفل. وفي الحقيقة. يبلغ دماغ الإنسان من الضخامة قدرا كان ليمنعه من الخروج من رحم المرأة إن هو أتم نموه قبل الولادة؛ ولذلك فإن معظم نمو

تطور الطفولة

الدماغ يحدث بعدها. حيث يتضاعف حجمه بعد 12 شهرا. ويتضاعف مرة أخرى بعد 12 شهرا أخرى. وهذا يعني أن الجنين البشري. بما له من دماغ غير مكتمل. يولد عاجزا بشكل استثنائي ويستمر كذلك لمدة طويلة بعدها. ومن الأسباب التي يعتقد بأنها أدت إلى مشي الإنسان على قدميه يتمثل في حاجة الأمهات إلى حمل ذرية تعجز عن تعقبها.

ينتقل كونر بعدها إلى استعراض الأسس الجينية والعصبية التي تحدد هوية الجنس والمزاج العام وتشكيل سلوكيات من أمثال تعلق الطفل بوالديه واكتساب اللغة. ويصف العلاقة المتبادلة بين الجوانب البيولوجية والنفسانية للبلوغ: فبخلاف الحيوانات التي تنتقل سريعا من الطفولة إلى البلوغ. فإن الكائن البشري الذي نجا من أخطار الطفولة ولم يجرب بعد مخاطر البلوغ يخوض تجربة فيها نوع من التحول خلال «نقلة الخامسة إلى السابعة من العمر». ويخرج بعدها بقوى محسنة جدا من الإدراك إلى مرحلة من النمو البطيء. وهذه المرحلة السعيدة المديدة المحصورة بين ارتباك الحياة المبكرة وحدة مرحلة البلوغ تبدو كما لو أنها مصممة تطوريا كي يتشرب الطفل بالثقافة التي أتاحتها الأدمغة الهائلة. الثقافة التي لا يمكن لغير الإنسان أن يدعيها.

إن جوهر الثقافة يكمن في الاختلاط الاجتماعي. وهي عملية نتشاركها مع الكثير من الأجناس الحيوانية: فعند الثدييات مثلا. تبدأ هذه العملية برابطة مفترقة بين الأم ونسلها. وهي رابطة موجودة منذ زمن بعيد يعود إلى عصر الديناصورات. وحينها كانت حتى صغار الثدييات البيوضة تتغذى مباشرة من أجساد أمهاتها وتطلب الاهتمام منها عبر البكاء (كانت صغار الثدييات تبكي بأصوات ذات توترات مرتفعة تسمعها الأمهات ولا تسمعها الزواحف المفترسة). وعلى الرغم من أن الرابطة بين الأم وطفلها تعد جوهر مفهوم العلاقة. فإن الكائن البشري يلجأ إلى التعاون في عملية تنشئة الطفل. إذ يوجد «دليل كبير». عملت عليه وطورته بشكل أساسي عالمة الانثروبولوجيا سارة هاردي (Sarah Blaffer Hrdy). يرى أن «الأم البشرية استمدت العون دوما» من الأب والجدة والأقرباء الأكبر سنا وغيرهم. ولكن هذا لا يمنع من وجود دليل على أن القرابة ليست دائما على ما يظن

تطور الطفولة

بأنها أهم عامل في هذا الأمر. إذ توصلت الدراسات المجراة على مجتمع الصيد والتجميع لدى أحد الشعوب الأفريقية البدائية. مثلا. إلى عدم وجود مكسب خاص من الإطراء الذي يقدمه الأبوان أو الجدان. وفي الحالات التي يكون فيها للأطفال قلة من الأقارب. يبدو أن بالغين آخرين يتحملون المسؤولية. مما يدعم المثل القائل بأن «تنشئة الطفل تحتاج إلى قرية». ومن المهم جدا أن الأعوام العديدة التي تعيشها الأنثى بعد انتهاء خصوبتها تعود بفائدة عظيمة على الجماعة. حيث تكون الجدات منشغلات في العادة بتربية الأطفال. مما يسمح لأطفالهن. وبالأخص بناتهن. بإنتاج أطفال أصحاء آخرين.

يولي كونر في كتابه اهتماما خاصا باللعب. وهي ظاهرة ليست حكرا على البشر. وفي الحقيقة. يبدو أنها موجودة لدى الثدييات منذ ظهورها. كما هو حال العلاقة بين الأم ونسلها. ويلاحظ لدى الثدييات أن أكثرها لعبا أكثرها ذكاء. أي أن صفتي الذكاء واللعب تطورتا سويا. ويرى كونر أن اللعب «بما فيه من مزج لقدر عظيم من الطاقة والخطر والعبثية الواضحة. يشكل تناقضا مركزيا في البيولوجيا التطورية». ويبدو أن للعب وظائف متعددة منها: تمرين الجسد. والتعلم. وصقل المواهب. وما يثيره من عواطف إيجابية قد يكون نوعا من التكيف يشجعنا على تجربة الأمور الجديدة والتعلم بمرونة أكبر. وفي الحقيقة. ربما يكون اللعب هو الوسيلة الأساسية التي وجدت لتطوير الدماغ البشري.

أخيرا. يطرح كونر رأيا مفاده أنه حتى لو كانت الثقافة عرضة لقوانين التطور كما هي حال الجوانب الفيزيولوجية والسلوكية الأخرى. فإنها بأشكالها المعقدة تعد حكرا على الجنس البشري؛ ولكن يشدد مع ذلك على أن البشر يشتركون مع الحيوانات في تبنيتهم لبعض القيم والعواطف: كالحب. والأسى. والإيثار. والبطولة. والولاء. والعار. والكرامة. والهيبة. والتفكير: وهي أمور كانت تعد خاصة بالبشر دون غيرهم. وربما لا يكون البشر هم الوحيدون الذين يمارسون التعليم. ولكنهم الوحيدون الذين يقومون بالإبداع والبناء بطريقة تراكمية. وهم الوحيدون الذين يسكنون «شباكا من العظمة قاموا بحياكتها هم أنفسهم» كما يقول كونر نقلا عن عالم الأنثروبولوجيا كليفورد غيرتز (Clifford Geertz).

تطور الطفولة

إن المسعى النهائي لكونر يتمثل في بناء نظرية تشمل كافة مناحي الحياة البشرية؛ فالعمليات التطورية التي يصفها في كتابه ما هي إلا الطريق (وعبر كل المستويات: الجينوم، الجهاز العصبي، المجتمع، الثقافة) الذي نسلكه باستمرار، نحن الذين نحمل معلومات تراكمت عبر ملايين السنين. من أجل التفاعل مع البيئة، وبهذا نتعلم ونغير ردة الفعل المطلوبة على تحدياتها. والأطفال، وهو يمرون بعملية تشكيل وتنظيم ذواتهم نفسها، يخوضون هذه التجربة بكل قوة؛ وهنا يجب أن لا نتفاجأ. كما يرى كونر، عندما نرى الأطفال، وهم في خضم أكثر مرحلة من حياتهم حبا للاستكشاف بفعل «أدمغتهم الضخمة سريعة النمو وشديدة الديناميكية». في طبيعة الإبداع الثقافي على امتداد تاريخ البشرية.

إن هذا الكتاب يعد زهرة عصر مدهل من الإنجاز والإبداع الذي قدمه علماء تطور السلوك؛ فهو يلخص حصيلة عمل جيل من البحث والتفكير، ولكن أهميته العظيمة لا تعني خلوه من مواطن الضعف: إذ يعجز قلم الكاتب أحيانا عن التركيز على النقطة مثار البحث، ويبدو أحيانا أخرى وهو ينوء تحت وطأة الطبيعة الموسوعية لمشروعه. أما عندما يغربل الأدلة ويقيّمها فإنه دائما يتصف بالحكمة والخيال الخصب؛ ولكن الكتاب يبدو في كثير من الأحيان كما لو أنه تجميع للأبحاث والمكتشفات دون استخلاصها للخروج برأي رصين، ويمكن القول بأن هذا الكتاب لم يخضع لعملية تحرير صارمة وشاملة يحتاجها عمل له مثل هذه الأهمية، كما إن كتابا له ما يدعيه من طموح هائل هو الذي يستحق أن يؤخذ لعدم تحقيقه تكاملا في عظمته.